اللغة والثقافة والفكر ثالوث العملية التواصليّة

عليّ محمّد عليّ

ali.mohammed1103b@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

أ.د.زهير محمّد عليّ

جامعة بغداد/ كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية

الملخص:

تتراوح الثقافة بين عالم الأشياء وعالم الأفكار، أو ما يصطلح عليها في الفكر الماركسيّ الثقافة المادّيّة والثقافة المتكيّفة. ويقصد بالأولى ثقافة استعمال الأشياء من الأدوات في الحياة اليوميّة، في حين يُراد بالثانية العادات والتقاليد والأفكار والتوجهات واللغة. وهذا يعني أنّ الثقافة المتكيّفة تتأثّر تأثرًا واضحًا بالمجتمع الذي يعيش فيه الفرد، وتشكّل هُويّة الفرد. وهذا يعني أنّ تصرفات الفرد وتعامله مع الأشياء تختلف تبعًا لعلاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه فضلًا عن التأثير الذي يختلف باختلاف اللغات. فضلًا عن ذلك فإن الفكر يؤثر تأثيرًا ملحوظًا في تحديد المعنى اللغوي للعبارات والكلمات، بل له الأثر الأبرز في اختيار عبارات معينة وصوغ خطاب ما على وفق معايير وأنماط محددة.

الكلمات المفتاحية: التضليل، الإعلام العربي، التحليل النقدي للخطاب، اللسانيات، الإعلام.

المقدمة:

يُقصد بالثقافة على وجه العموم دراسةُ الجنس البشريّ من نواحٍ مُتعدِّدة، ومن أبرز هذه النواحي المنظومات الثقافية للمجتمعات البشريّة، من خصائص ووظائف وطبيعة العلاقات القائمة بين البشر[١].

إنّ لفظة الثقافة لم تكُ موجودةً في الاستعمال العربيّ الذي استقرّت عليه اليوم إلا في العقد الثاني من القرن الماضي، إذ هي من أصول لاتينية يرجّح ظهورها في القرن الحادي عشر، وهي مشتقة من تثليث: المقدّس، إعمار الأرض، الحرث والزراعة، حتّى تحولت دلالتها من طريق المجاز إلى إعمار الإنسان والاهتمام به بغية إصلاحه[٢].

يُشير سلامة موسى إلى أنّه أوّل من ذكر مصطلح الثقافة في الدراسات العربيّة، إذ يقول: «كنتُ أوّل من أفشى لفظة الثقافة في الأدب العربيّ الحديث، ولم أكن أنا أوّل من سكّها بنفسه، فأنا انتحلتها من ابن خلدون، إذ وجدته يستعملها بمعنى شبيه بلفظة (كلتور) الشائعة في الأدب الأوربيّ»[٣]. أمّا في الغرب، فيعدّ (إدوارد تايلر ١٩١٧م) أوّل من وضع اللبنات الأساسية لتعريف الثقافة بوصفها ميدانًا مهمًّا تشترك فيه الدراسات الإنسانيّة. «إنّ الثقافة والحضارة، هي ذلك المركّب الكليّ الذي يشتمل على المعارف، والمعتقدات، والفنون، والآداب، والأخلاق والقوانين، والأعراف، والقدرات، وكذلك على جميع الاستعدادات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بصفته عضوًا في مجتمع معيّن»[٤].

عطفَ التعريفُ السابق الحضارة على الثقافة بالواو وهذا يفيد المشاركة في فحوى التعريف، وهذا يعني أن الحضارة جزء بارز وفاعل في تشكيل الهوية الثقافية، وتكاد تكون بعض المجاميع البشرية تنتمي لحضارة واحدة

مشتركة فتجد ثقافة هؤلاء متشابهة على الرغم من اختلاف توجهاتهم وبيئتهم، ودليل ذلك الثقافة العربية الإسلامية التي تشكّل السمات الروحية للفرد العربيّ.

في المحصلة نجد تعريف الثقافة من التعريفات السائلة التي تتخذ أوضاعًا متعددة وقابلة للتغير في الوقت نفسه، وهي –بالمجمل– لا تخرج عن فحوى السمات الروحية التي تشكّل الفرد ويؤثر هذا الفرد في الآخرين ويتأثر بهم بحسب الثقافة مما يشكل جماعة (مجموعة ثقافية) تنماز بسمات ثقافية تتجلى بالتعامل والمظهر واللبس واللغة. وأما من حيث تأثيرها في العميلة التواصلية فهي تؤثّر تأثيرًا مهمًّا في عمليّة استجلاء المعنى واستبعاد نوافذ التأويل التي تكتنف القولات، وتحيط بها، وبذلك تكون الثقافة عنصرًا مهمًّا من العناصر التي تُسهم في تواصل ناجح وبعيد عن التأويل المتعدد، أي إنّها تقوّض مسار المعنى، وتسوّر المقصد بغية الوصول به إلى برِّ الأمان. فهي تختصرُ الكثير من المفردات التي قد يذكرها المتكلِّم ليوضح معنى معيّنًا في قولة معيّنة، فتضغط العبارة وتوّضح المعنى لبلوغ المقصد؛ لذلك يُشاع في دراسة الأدب أنّ الشاعرَ ابن بيئته، ويعنون بالبيئة ما يوازي الثقافة أو الثقافة نفسها، فالدافع الأبرز لإنتاج الشعر عند الجاحظ (٢٥٥) إنّما يكون "عن قدر ما قسم الله لهم [الشعراء] من الحظوظ والغرائز، والبلاد والأعراق"[٥]، فنجده يجعل الثقافة جزءًا مهمًا في الشعر، وقالوا الشاعر؛ لأنّ نمط القولات في الشعر يختلف عن نمط القولات في النثر، فالشعر محكوم بقوافٍ ووزن، ممّا يعني أنّ مساحة الخطاب فيه محدودة، والبنى اللفظيّة محسوبة، فيتعكّز الشاعرُ على عكّاز الثقافة ليبلغ المقصد المُراد بقولات قِصار. وهذا ما أطلق عليه فلاسفة اللغة العاديّون مصطلح (**المعرفة المشتركة**) وهو مصطلح أضيق من الثقافة، غير أنّه داخل ضمن مقتضياتها. ففهم المعنى وتحقيق التواصل الناجح الفعّال يتطلّب من المتواصلين باللغة (مُنتج ومتلقٍ) معرفةً مشتركةً[٦] ومعلومات مسبّقة؛ وكيما يحافظا على عرى التواصل من الانقطاع ولا تفضي بهما الحال إلى التنافر وعدم فهم الآخر، وهذا ما أسماه الشهريّ بـ(تجذر طرفي الخطاب)، فتذوب معاني المفردات بين المتلقي الباث حتى يصبح الطرفان قادرين على تفكيك الشفرات الخطابية بسهولة ويسر، تلك التي تبدو للمستمع الذي لم يتسنَ له التجذّر معهما في عمليتهما الخطابية غامضة. وعندما يتجذر الطرفان يعني أن التأويل السليم للمفردات وصل منتهاه من الدقة والضبط، وأصبح من الصعب أن يخطئ أحدُ الطرفين في تأويل الخطاب أو إنتاجه. وهذه العملية مضارعة لتوحيد مخرجات المعجم الذهني لطرفي الخطاب، فيكون المتلقي عارفًا ومتوقّعًا لما يصدر من المتكلم أو منتج الخطاب. وفي الوقت نفسه يعرف المعاني والمقاصد جيدًا. وبذلك يتجه الخطاب اتجاهًا موضوعيًّا. فيصبح الطرفان «أقرب إلى التواصل بين آلتين. بل وتصبح لغة التواصل بينهما مطهرة من كل شوائب الاعتبارات الآنفة. النفسية والاجتماعية والعقائدية»[٧]. بمعنى أن الباث يراعي استعداد تقبل المتلقي للخطاب الذي يلقيه، ويشعر بمدى تأثيره في نفس المتلقي. وأبرز مثال على هذا الكلام قول علي بن الجهم في مدح المتوكل:

أنت كالكلب في حفاظك للود و كالتيس في قراع الخطوب[٨]

فهمَّ بعض أعوان الأمير بقتله، فقال الأمير: خلّ عنه، فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمنا، وقد لا نعدم منه شاعرًا مجيدًا، فما أقام بضع سنين في سعة عيش وبسطة حال حتى تغيرت ألفاظه[٩]، ونسبت إليه قصيدة مطلعها:

يا من حوى ورد الرياض بخده وحكى قضيب الخيزران بقده[١٠]

نستشف من ذلك أنّ هناك تبادلًا ذهابيّا وإيّابيًّا بين اللغة والثقافة، بمعنى آخر أنّ هناك تأثّرًا وتأثيرًا في كليهما، فإن كانت اللغة من العناصر المهمّة في قولبة الهُوية الثقافيّة، فإنّ الثقافة لها الأثر المبرّز في الكشف عن معنى المفردات المناسب الذي يريده المتحدث، وهنا يبرز ما يسمّى بـ(السياق الثقافيّ). وهذا السياق ينبع من التأثر الاجتماعي الذي تولد فيه العبارات ويتلقاها المخاطَبون. فعندما يقول الخليجيّ (شيخة) تختلف تمامًا عنها إذا ما قالها المغربيّ، فالأولى محمودة والثانية مذمومة، وأعني استعمالهما. بينما تعني العافية في مصر (القوة)، وعند المغاربية (النار)[١١].

مثل هذه الأمور يطلق عليها اللغويّون تسمية التوليد المعجميّ، غير أنّ «علينا أن نميّز بين نوعين من أنواع التّوليد المعجمي: الأوّل، نسمّيه توليدًا عفويًا، وهو النّوع الذي يمارسه أبناء اللّغة في كلّ يوم، والذي يحدّد طريقة اللّغة في سدّ حاجاتها المعجمية، والثاني، هو ما نسمّيه توليدًا مبرمجًا، وهو النّوع الذي تؤدّيه السياسات اللّغوية، أي القرار بتوليد الكلمات»[١٢] . فالتوليد العفويّ هو الذي يقوم به العامّة دون اتفاق أو اصطلاح بينهما، وإنّما يأتي لسد الحاجات اللغوية في الحياة اليومية، وهو –برأي الباحث– من العوامل التي تساعد على تطور اللغة ونموها. بعكس التوليد المبرمج الذي يتطلب مجمعًا لغويًّا وسلطة لغويّة تَفرض على المجتمع وقد لا تشيع مصطلحاتها كما الحال في (المرناة) التي تُطلق على (التيلفزيون)، وبالعودة إلى التوليد العفويّ فإنّ المتكلم (بأي لغة) قد لا يجد مفردات تعبّر عن ما يريد قوله، وهذا نابع من تأثره بالثقافات الأخرى، لاقتراض المفردات منها، وهذا ما يسميه كالفي بالتدخل البيروقراطي في اللغة، وهو (الاقتراض)[١٣]. ونجد مصداق ذلك ما يتداوله الشباب العربيّ اليوم من ألفاظ أجنبية ليعبّروا عن مواقف معينة، ومرد ذلك إلى حاجتهم اللغويّة لهذه الألفاظ فكلمة (كراش) مثلًا كلمة غربيّة ولدت في القرن الرابع عشر الميلاديّ وتعني (الطحن) ثم تطورت شيئًا فشيئًا حتى أصبحت تعني المعجب السريّ أو الحب من طرفٍ واحد بحسب بحث كيمبرلي هيرن، تخصص الدراسات السلوكية[١٤]. فالمتكلم ينطلق من منطلق النفعيّة فيجد (كراش) تختصر ما يعبّر عنه، بل أنّها دقيقة في التعبير ولاسيما بعد أن أصبحت شائعة متعارفًا عليها بين أبناء جيله، فهي عنده أسهل من (المعجب السريّ) وأكثر اختصارًا منها. ولابد من الإشارة إلى العامل البارز في شيوع هذه المفردات وما يضارعها هو أن منتج هذه المفردات –سواء اقتراضًا كانت أم توليدًا– يكون ذا وجاهة في المجتمع أو تكون كلمته مسموعة بفضل شهرته بين الناس، وأبرز دليل على ذلك هم مشاهير التواصل الاجتماعي –بترك النظر عن معرفتهم اللغوية– فاللغة لا تعرف الشهادة الجامعية أو التخصص العلميّ؛ لأن السلطة –في هذه المواضع– تكون للمجتمع. وهذا أمر لا مفر منه في ثراء اللغة واجتراح مفردات أو مصطلحات جديدة تضاف إلى المعجم اللغويّ، لذلك نجد المعجميين يصرون على تحقّق عامل الشيوع كيما تُضفى سمة الشرعية على الألفاظ، فـ "اللفظ الذي يشيع على أوسع نطاق في محيط الجمهور العام لتسمية أسباب الحياة هو قاسم مشترك أعظم في كل فروع المعرفة والثقافة والصناعة والتجارة والعلوم البحتة والعلوم الاجتماعية والإنسانية والفنون والآداب، ذلك أن قيام الجمهور في التعبير عن حياته وبيئته وعلاقاته بما حوله يستمد عناصره من كل علم وفن ومعرفة"[١٥]. في حين أصرّ الآخرون على معيار الاستعمال لا الشيوع؛ لأنّهم يرون أن الشيوع تحصيل حاصل بالنسبة للاستعمال[١٦]. وهذا ما أكّده الدكتور عبد الكريم خليفة، إذ حصر الألفاظ التي تخص الحضارة باستعمال المجتمع لها[١٧]. ونجد مصداق ذلك في كتب التراث العربيّ فالصَفقة: «ضرب اليد على اليد في البيع، وكانت

الصفقة في البيع عند العرب: أن يضرب المشتري بيده على يد البائع إن رضي البيعَ ثم سُمِّي عقدُ البيع الصفقة»[١٨].

في حقيقة الأمر هناك (ثالوث) يُسهم في بلورة العملية المعنويّة الذي يكتنف المتكلّم في أيّ لغة ما، والفصل بين ركائز هذا الثالوث قد تبدو غير مجدية؛ لأنّ كلّ ركيزة فيه تدعم الثانية بل لا تقوم إلا على السابقة، وهي على ذلك متواشجة متداخلة تداخلًا لا يمكن فصله من دون أن يُلحظ وجود خلل في النظام اللغويّ (المعنويّ). هذا الثالوث هو: اللغة، والثقافة، والفكر. وأعني باللغة التعريف الذي أراده سوسير في منهجه البنيويّ: «اللغة نظام من العلامات أو الإشارات للتعبير عن الأفكار"، أو " نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية في أذهان الجماعة اللغوية، تحقِّق التواصلَ بينهم، ويكتسبها الفرد سماعًا من جماعته»[١٩]. وأما الثقافة فتطرقنا لتعريفها في بداية هذا المبحث وهي معرض الحديث. وأمّا الفكر فهو الذي يكون حصيلة الكلمات المختزلة في ذهن الفرد، ويتقولب على شكل هذه الكلمات.

أثر اللغة في الهوية الثقافية:

تعطي الثقافة –بحسب ما تناولناه في التعريفات السابقة–شكلًا للفرد، ونعني بالشكل معنويًا، وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بهوية الفرد، وسماته الروحيّة التي تتماز بها جماعة لغوية من جماعة لغويّة أخرى. فتكون الثقافة لغة واللغة هُويّة ثقافية تميز الفرد في المجتمع، وسلخَ الفرد من لغته يعني سلخه من ثقافته وهويته الوجوديّة، فمعادلة: لغة واحدة= ثقافة واحدة، تعني أن للغة مكانًا لا يمكن حشوه بأي شيء آخر. ونجد حادثة الأديب الهاييتي المعروف، أدموند لا فورست مصداق ذلك، فقد أقدم هذا الأديب على الانتحار من فوق الجسر ملقيًا نفسه في الماء وكان قد ربط معجم لاروز الفرنسي على رقبته، إشارة منه إلى أثر الفرنسية والاستعمال الفرنسي في سلخ هويته اللغوية. فاختار لافورست انتحاره رمزيًا شاهدًا على رفضه وسوء معاملته. وهذا يؤكد أن الفرد يرتبط ارتباطًا لا ينفصل عن لغته، فهي تشكل كينونته وهويته[٢٠]. فـ«لا ثقافة بغير هوية حضاريّة ولا هوية بغير إنتاج فكريّ، ولا فكر بغير مؤسسات علمية متينة، ولا علم بغير حرية معرفية، ولا معرفة ولا تواصل ولا تأثير إلا بلغة قوميّة تضرب جذورها في التاريخ»[٢١]. وأدل دليل على أنّ اللغة تشكل الركيزة الأساسية في قولبة الهوية الثقافية للفرد أن الحكومات تثبت ذلك في دساتيرها. إذ جاء في الدستور العراقيّ: «اللغة العربية واللغة الكردية هما اللغتان الرسميتان للعراق، ويضمن حق العراقيين بتعليم أبنائهم باللغة الأم كالتركمانية، والسريانية، والأرمنية، في المؤسسات التعليمية الحكومية، وفقاً للضوابط التربوية، أو بأية لغة أخرى في المؤسسات التعليمية الخاصة»[٢٢]. وإلى ذلك يشير طه حسين متحدّثًا عن أهمية الهوية الثقافية في تشكيل السمات الأدبية للشاعر «ألفانا أن ندرس الشعراء والأدباء فنبحث عن أشخاصهم وربما ألهانا ذلك من ألوان أخرى من البحث هي أعظم خطرًا من أشخاص الشعراء، وهي ظروف البيئة التي يعيشون فيها»[٢٣]. إذن هناك تبادل –كما أشرنا– بين الثقافة واللغة، تبادل يصعب فصله. فالثقافة قد تؤثر على تفكير الفرد تُنمّط طرائق تفكيره مما ينعكس على أسلوب حديثه بل على صياغة المفردات اللغوية وطريقة التعامل معها، وعلى سبيل المثال يقبع التصور الذي يقصي المرأة في عقل العربي القديم، حتى صار هذا الأمر مثلًا، جاء في مجمع الأمثال: «لُبّ المرأة إلى الحمق»[٢٤]. وهذا ينعكس على تفكير اللغوي في صوغ المصطلحات النحوية واللغوية، فهم وضعوا جمع مذكر سالمًا ومن شروطه أن يكون مذكرًا عاقلًا و" ليس المراد بالعاقل أن يكون

عاقلًا بالفعل، وإنما المراد أنّه من جنس عاقل، كالآدميين والملائكة، فيشمل المجنون الذي فقد عقله، والطفل الصغير الذي لم يظهر أثر عقله بعد. وقد يجمع غير العاقل، تنزيلا له منزلة العاقل، إذا صدر منه أمر لا يكون إلا من العقلاء. فيكون جمع مذكر".[٢٥] في حين أنّنا نجد بعض النحاة يسلبون تسمية (جمع المؤنث السالم) من الإناث، ويفضلون تسمية (المزيد بألف وتاء)[٢٦].

فحين يصح أن نرى إنسانًا دونما روح، يصّح عنئذٍ تصوّر لغة بلا ثقافةٍ، فجسد اللغة الرشيق المطاوع لا يتمظهر فيه المعنى إلا بوساطة الثقافة، تلك التي تبدأ قبل إنتاج القولة، مرحلة التفكير في العبارة والتجميع والربط والرصف ومن ثم مرحلة الإنتاج، سواء أ نصا كان المنتج أم خطابًا. ومن ثم المرحلة التي ترافق إنتاج القولات، وهي مرحلة أقرب للمتلقي، لأنه سيحتاج في كثير من الأحيان إلى الروح (الثقافة) بغية الوصول إلى مغزى لا يحتمل الكلام غيره.

اللغة والفكر (رؤية العالم):

شاع في القدم أنّ الفكر سابق للغةِ مقدّمٌ عليها، وإلى ذلك يُشير ابن رشد (٥٩٥هـ)، فالمعاني عند ابن رشد معروفة للجميع وهي مثل الأشياء التي يراها الناس جميعًا، وإن الاختلاف يكون في اختيار الألفاظ التي تعبّر عن هذه المعاني الموجودة في النفس[٢٧]. وهذا يعني أن الفكر هو العامل المحرك للغة واللغة نتاج الفكر. وهذا يذكرنا بعبارة الجاحظ المشهورة بخصوص المعاني والألفاظ: « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ والقروي، والمدنيّ. وإنّما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج... »[٢٨]. غير أن الجاحظ لم يجهل أهمية الفكر (المعنى) بل تنبه إلى أهمية اللفظ بمعية المعنى، إذ قال: « فإذا كان المعنى شريفًا واللفظ بليغًا، وكان صحيح الطبع، بعيدًا من الاستكراه، ومنزهًا عن الاختلال مصونًا عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت من قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة»[٢٩]. فهذا القول في غاية الدقة والاحتراز من فتح باب التأويل وعدم الحفاظ على عرى التواصل بين طرفي الخطاب، وحين تكون اللفظة على مقاس المعنى ولا تحتمل معنى آخر ستكون مفهومة من الجميع حتّى الجهلة. وهذا ما سعت إليه الدراسات اللسانية الحديثة، والمعاني ليست واحدة عند الجميع كما يزعم ابن رشد، فلو كانت كذلك لأصبحت قواميس اللغة مجرد خانات تقابل كلّ معنى مجموعة من الألفاظ وهذا ممَّا لا يمكن حدوثه، فليس هناك معنى واحد في اللغات؛ لأنّ لكل لغة طريقةً خاصّة في النظر للعالم والأشياء تختلف قليلًا أو كثيرًا عن اللغات الأخرى، وهذا لا يعني أنّ المعنى متطابق تمامًا في كلّ اللغات[٣٠].

لابد من الإشارة إلى أنّ نظرية الماديين توجب تأثر الأشخاص بالأشياء وهي مضارعة إلى حدّ كبير لنظرية رؤية العالم إن لم تكن الثانية مستقاة منها، فهم يقرّون بأسبقية المادة على العقل، وبإمكان الفرد أن يتعلّم من الأشياء الموجودة في حياته فالعقل تالٍ للمادة، وعلى ذلك فإن المعرفة لا حدود لها[٣١]. والنظرة الأخرى هي نظرة العقلانيين الذين يرون أن العقل أساس المادة، وحامل لواء العقلانيين هو ابن رشد[٣٢].

إنّ تأثير اللغة في الفكر يتجلّى في وضوح الفكر على وصف قالب اللغة، فهو يأخذ شكلها، بل يمكن القول: إنّه كيفما تكون اللغة يكون الفكر. هذه النظرة ولدت من رحم نظرية العالم وهذا الاتجاه شامل يضم علم الأديان والفلسفة والأنثربولوجيا، توسع وتنظم في سبعينيات القرن الماضي على يد **(روبرت رودفيلد)**[٣٣].

تسعى نظرية رؤية العالم إلى تفسير الظواهر الكونية الحافّة بالإنسان، لكن المركز هو الإنسان نفسه، فهو المشرعن للتفسير، فالتصورات الجمعية لا تقتصر على تصوير العالم أو الكون بل تصدر من الناس أنفسهم وتقدِّم تفسيرًا لهويتهم وارتباطاتهم بذلك الكون[٣٤]. وعلى ذلك فإن رؤية العالم هي تلك الرؤية الداخلية الكلية لجماعة ثقافية كما يعلمها ويجمعها الدارس من خارج تلك الجماعة، وهذا يعني أن رؤية العالم تحتاج (ذات) وآخرين، أشياء، زمانًا، مكانًا. والفرق بين رؤية العالم ودراسة الكون أن الأولى تحدث تلقائيًا ويقوم بها العامّة، أمّا الثانية فيقوم بها الصفوة[٣٥]. وقد حدد جيفرنز Jevons أغراض اللغة في أمور ثلاثة هي[٣٦]:

١. كون اللغة وسيلة التفاهم.

٢. كونها أداة صناعية تُساعد على التفكير.

٣. كونها أداة لتسجيل الأفكار والرجوع إليها.

واستنادًا إلى ما تقدّم فإنّ "ألكسندر فول هومبولتد" يستشكل على تصنيف اللغاتِ بلحاظ القرابة اللفظيّة أو "الصورة النحويّة" وبرأيه أنّ المقارنة أو التصنيف يجب أن يكون على وفق ما هو متقارِب في "الصورة الداخلية للغة"، والتي تعني الديناميكية التي تتمتع بها اللغة وطريقة التفكير التي تضفيها اللغة على التفكير، فللصورة الداخليّة ميكانيزمات خاصّة تميّز اللغات وتعكس تصور الشعوب تجاه العالم، فكلّ يرى العالم في حدود ما تسوّره اللغة، ولاسيما أنّنا وجدنا في ظل التصنيف المتعارف عليه كلمات متشابهة في أكثر من لغة أو اثنتين مع أنّ هذه اللغات ليست من أرومة واحدة (أصل واحد) كالعربيّة والإنجليزية والعربية والألمانية والعربيّة والفارسيّة[٣٧].

هذه اللغات لا تنتمي إلى أصل لغويّ واحد، أي أنها لا تشترك مع العربيّة غير أنّ هناك ألفاظا مشتركة بينهما. فللألمانية نصيب كبير من الاشتراك في المعاني مع العربيّة منها كما يذهب عبد الحق فاضل في كتابه العربية والألمانية:

Fressen (فريسن) تعني الأكل بالألمانية، وهي تقابل فريسة او يفترس وتعني الأكل بشدة. وكلمة erde تعني الأرض وهي نفسها لفظا ومعنى في العربية. وكلمة Kuchen تؤثل إلى كعكة في العربية، وفي اللغات الهندوأوربية cat هو قط نفسه. ولعبد الحق فاضل جهود في هذا التقارب والتأثيل[٣٨].

يذهب (فون هومبولتد) إلى فكرة مفادها أنّ اللغة تؤثر في طريقة التفكير وتُمنهجه، ومن ثم تتغير رؤية العالم بحسب تغيّر اللغة، فالعالم يتذوّت داخل الفرد وهو حصيلة (فكره) وتصوّراته، ويتموضع مرّة أخرى نتيجة قذف الشخص للمفردات وإخراج فكره على شكل ألفاظ (لغة) مُتمفصلة قصديّة فيها أفكار ومقاصد، وهو ما يميز الإنسان عن الحيوان، أي إنّ تمفصل اللغة لا يوجد عند الحيوان، فلغته ليس فيها فِكر كلغة الإنسان المُتمفصلة[٣٩]. فالإنسان يكون فاعلًا ومستقبلًا في وقت واحد، هذا الأمر جعل (كانط) يؤسس نظرة مفادها أن الموضوعي لا يكون موضوعيًّا إلا بعد أنّ نضفي عليه الذاتية، وهذه هي فكرة (هومبولتد) نفسها إلى حدّ ما، فالإنسان يعبّر عن فكره بالفونيم المتمفصل بوساطة اللغة، هذه اللغة هي التي تشكّل هوية الناطقين بها وتكشف عن فكرهم وتوجههم[٤٠].

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ فكرة تأثر الفكر باللغة قد تطرق لها (سابير و وورف) فيما يعرف بـ(فرضية سابير وورف) كما مر بنا في أولى صفحات البحث التي نصّت على أنّ اللغة تؤثر في تفكير المرء وإدراكه للواقع وللأشياء، فالمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان هو قفص لغويّ، ومن ثم فإنّ اللغة أصبحت تؤثر على العادات

والمجتمع. وأشارا إلى أنّ رجال قبائل الهوبي لو أسسوا الفيزياء لأصبحت تختلف عن فيزياء نيوتن لاختلاف طبيعة اللغتين[٤١].

يتداخل مفهوم رؤية العالم في مختلف حقول المعرفة: في الدين، والفلسفة، والعلوم الاجتماعية والطبيعية، والفنون، والعلوم التطبيقية مثل الطب والهندسة...إلخ. فالمصطلحات الدينية مثل الإيمان والعقيدة والتصور الكلي تعبر عن مجموعة الأفكار والمفاهيم والمعتقدات التي تجيب عن الأسئلة الوجودية الكبرى التي يحاول مصطلح «رؤية العالم» التعرض لها. وهي الأسئلة نفسها التي انشغلت بها الفلسفة منذ بداية عهد الإنسان بميادينها. وهي المحتوى الأساسي لفلسفة أي علم من العلوم الحديثة الذي يؤثر في تشكيل نظريات هذه العلوم ومناهج البحث فيها[٤٢].

وخلاصة القول، يذهب الباحثُ إلى وجود التأثير الثقافي والفكريّ، غير أنّ القطعيّة بهذين التأثيرين لا يُسلّم بها، فالنسبية أفضل المسالك في هذا الميدان. والثقافة عنده تلك التي تُشكّل اللبنات الأساسيات في قولبة الألفاظ اللغوية وتكسو الأشياء تسمياتها واصطلاحاتها، فضلًا عن الجانب التفسيريّ الذي تؤثر فيه الثقافة تأثيرًا بارزًا حين يستحضرها المتلقي في فك شفرات الخطاب المُلقى له.

وبعد أن أسهمت الثقافة في تكوين هُويّة الألفاظ إلى حدّ ليس بالقليل، أصبحت اللّغة الآن متحكّمة في الكثير من المواضع بالجانب الفكريّ عند الفرد الأمر الذي يحدوها إلى فرض سطوتها على نمطية التفكير للفرد. "فالخطاب دليل على فكر للمخاطب"[٤٣].

وعلى سبيل التوضيح لا الحصر، تفرض طبيعة الثقافة الإنجليزية على الفرد تسمية (الرقبة) ويعنون بها العضو الرابط بين جسم الإنسان ورأسه، في حين هناك لغات تسمي الجزء الأماميّ رقبة، و الجزء الخلفي قفا[٤٤]. جاء في الصحاح:" القفا مَقْصُورٌ مُؤَخَّرُ الْعُنُقِ... ومنه القوافي لأنه يتبع بعضها إثر بعض"[٤٥]. وعلى ذلك تكون اللغة بمنزلة العدسة التي تمر منها أفكارها، فتشذّبها وتنقّحها... ففي الإسبانية تُذكّر اللغة (جسر) ليرمز إلى القوة والمتانة، في حين تؤنث الألمانية الجسر؛ لأنها ترى فيه جمالًا ونحولًا، وهكذا تؤثر اللغات في نمط التفكير من طريق تشكيل صورة للأشياء توحي إليها المفردة اللغوية؛ لذلك تجد اللغة الألمانية لغة صارمة منطقية فترى الألمان أكثر التزامًا وتنظيمًا في طرائق التفكير، بعكس بعض اللغات التي لا تملك مفردات للتعبير عن المستقبل أو تحديد الوقت (قبائل الهوبي)، فتجدهم لا يفكرون بهذا الجانب. ولذلك يستحيل على البابليين فهم (الجريمة والعقاب)؛ لأنم يعبرون عن هاتين اللفظتين تعبيرًا واحدًا[٤٦].

وقد تفرض اللغة علينا أشياء لم يكن لنا عهد بها، بمعنى آخر لا وجود لها في حياتنا اليومية وفي محيطنا الذي نعيش فيه، لكن –وعلى الرغم من ذلك كلّه– يستطيع الفرد التعامل مع هذه الأشياء أو يفهم القولات وتعكس تأثيرًا في نفسه، وأبسط مثال على ذلك ما جاء في سورة الصافات: **{طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ}**[٤٧] أي إنَّ طلع هذه الشجرة– يعني شجرة الزقوم– في قُبحه وسماجته رؤوس الشياطين في قبحها[٤٨]. وبطبيعة الحال يبز السؤال الأهم في هذه الآية، هو " ما وجه تشبيهه طلع هذه الشجرة برؤوس الشياطين في القبح، ولا علم عندنا بمبلغ قبح رؤوس الشياطين، وإنما يمثَّل الشيء بالشيء تعريفًا من المُمَثِّل له قُرب اشتباه الممثَّل أحدهما بصاحبه مع معرفة المُمَثَّل له الشيئين كليهما، أو أحدهما، ومعلوم أن الذين خوطبوا بهذه الآية من المشركين، لم يكونوا عارفين شَجَرة الزقوم، ولا برؤوس الشياطين، ولا كانوا رأوهما، ولا واحدا منهما؟"[٤٩]. يفترض الطبريّ هذا التساؤل، وهو تساؤل

واقعيّ ويجيب عنه: « أما شجرة الزقوم فقد وصفها الله تعالى ذكره لهم وبينها حتى عرفوها ما هي وما صفتها، فقال لهم: {شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ}[٥٠] فلم يتركهم في عَماء منها»[٥١].

معنى الآية واضح. ومفرداتها لم يكن لها وجود في الواقع لا المُشبّه ولا المشبّه به، غير أنّ للغة أثرًا في بلوة الفكرة، فصار المخاطَبين كأنهم يرون هذه الشجرة فضلًا عن رؤيتهم لرأس الشيطان، وذلك هو تأثير اللغة في الفكر.

وعلى ذلك فإن العلاقة بين اللفظ والمعنى تكتسب منحى جدليًّا، وقد ثبت بشكل لا يقبل الجدل أو الشك أن الشخص الذي يقوم بعمل عقلي معين مثل حل مسألة رياضية أو تذكر بيت شعريّ يتحدث أيضا مع نفسه من دون أن ينطق بالكلام الجهوري، ومعنى هذا أن العمليات الذهنية تصاحبها دائما آثار معينة في أعضاء الكلام وفي جهاز التنفس عموما بمقدار ارتباطه بالتلفظ وبخاصة في الحنجرة، وسقف الفم، وباللسان والشفتين، وهذا يدل على أنّه لا يمكن حدوث عملية التفكير من دون الكلام... أي إنّ الفكر لا يصبح واقعًا محسوسًا قابلا للصوغ والتداول إلا عبر الكلمات، إنه بدون اللغة يصبح خامدًا غير قابل للتداول[٥٢]. وكذلك محلل الجمل لا يكتفي بالإعراب وحده بل يستعين بالصرف والمعجم وغيرها[٥٣]، فالعملية تشاركية تعاضدية بين الفكر والأدوات الأخرى

الهوامش:

[١] ينظر: الهوية الثقافية إشكالية جدلية الثقافة والمثاقفة: ٧٥.

[٢] ينظر: الثقافة في طبعاتها المختلفة:٥٨.

[٣] الثقافة والحضارة: ١٧١.

[٤] في الثقافة والخطاب عن الحرب والثقافات، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة: ٢٢.

[٥] الحيوان: ٥٤/٤.

[٦] ينظر: التداولية في البحث اللغوي والنقدي: ١٢.

[٧] إستراتيجيات الخطاب: ١١٤.

[٨] ديوان علي بن الجهم:١١٧.

[٩] ينظر: الأسلوب: ٣١.

[١٠] م،ن:٣٢.

[١١] اللغة والثقافة والإدراك:١٦٨.

[١٢] حرب اللغات: ٣٢٦

[١٣] ينظر: حرب اللغات:٣٢٦.

[١٤] https://2u.pw/fzJDz.

[١٥] ألفاظ الحضارة لعام ١٩٧١: ٤٠٦.

[١٦] علم المصطلح أسسه النظرية والتطبيقية: ١٠٤-١٠٥.

[١٧] المعجم العربي الموحد لألفاظ الحضارة:٧١.

[١٨] التعريفات الفقهية: ٢٩.

[١٩] محاضرات في اللسانيات العامة: ٢١.

[٢٠] ينظر: السلالة والكتابة:١٣. و ينظر: اللغة والثقافة:١١١.

[٢١] الهوية العربية والأمن العربي: ٢٧٢.

[٢٢] دستور جمهورية العراق لعام ٢٠٠٥ النافذ، المادة الرابعة أولًا.

[٢٣] حديث الأربعاء: ١٣٠/١.

[٢٤] مجمع الأمثال: ١٩٩/٢.

[٢٥] النحو الوافي: ١٤٠/١.

[٢٦] المصدر السابق: ١٦٢.

[٢٧] ينظر: تلخيص كتاب أرسطو في المنطق:٥٧.

[٢٨] الحيوان: ٦٧/٣.

[٢٩] البيان والتبيين: ٨٧/١.

[٣٠] ينظر: اللغة والهوية في الوطن العربي إشكالية التعليم والترجمة والمصطلح: ٢٣٩.

[٣١] ينظر: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان: ١٧.

[٣٢] ينظر: الفلسفة العقلانية عند ابن رشد:١٠

[٣٣] ينظر: تصور رؤية العالم في الدراسات الأنثروبولوجية: ١١-١٤.

[٣٤] ينظر: م،ن: ١٤.

[٣٥] م،ن: ١٤.

[٣٦] اللغة بين الفرد والمجتمع: ٨.

[٣٧] ينظر: اللغة والأمة والقصد: ١٠٠-١٠٣.

[٣٨] ينظر: العربية أم الألمانية: ٦٧ ومابعدها.

[٣٩] ينظر: اللغة والأمة مقاربة لفلسفة هومبولدت: ٩٥.

[٤٠] ينظر: اللغة والأمة ٩٧و ١٠٢.

[٤١] ينظر: اللسانيات النشأة وتطور: ١٩٠.

[٤٢] ينظر: رؤية العالم عند عبد الرحمن بن خلدون: ٧٧-٧٨.

[٤٣] ينظر: ثنائية اللغة والفكر قبالة المعاجز الحسية دراسة في السياقات الثقافية:٧٧.

[٤٤] ينظر: عبر منظار اللغة:٣٣ .

[٤٥] الصحاح، (قفا): ١ / ٢٨٥.

[٤٦] ينظر: عبر منظار اللغة: ١٠، ١٢، ١٤.

[٤٧] الصافات: ٦٥.

[٤٨] ينظر: تفسير الطبري: ٢١/ ٥٣.

[٤٩] م، ن: ٥٣/٢١.

[٥٠] الصافات: ٦٥.

[٥١] تفسير الطبري: ٢١/ ٥٣-٥٤.

[٥٢] ينظر: اللغة والفكر، نوري جعفر:٨١. وينظر: بحوث في اللسانيات والدلالة: ٣٥.

[٥٣] ينظر: بناء الجملة ودلالاتها في الدراسات النحوية العربية المعاصرة:٣.

المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم.

١. الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط١٢، ٢٠٠٣م.

٢. ألفاظ الحضارة لعام ١٩٧١م، محمود تيمور، مجلة اللسان العربي، م٩، ج١، ١٩٧٢م.

٣. بحوث في اللسانيات والدلالة، أحمد جواد العتابي، دار الحداثة، العراق–بغداد، ط١–٢٠٢١م.

٤. بناء الجملة ودلالاتها في الدراسات النحوية العربية المعاصرة، محمد ياسين الشكري، مجلة الأستاذ، جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد، مجلد، م٢٢٥، ع١، ٢٠١٨م.

٥. البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان الجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت–لبنان، ١٤٢٣ هـ.

٦. التداولية في البحث اللغوي والنقدي، بشرى البستاني، مؤسسة السياب، لندن، ط١، ٢٠١٢م.

٧. التعريفات الفقهية، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.

٨. تفسير الطبري، حمد بن جرير، أبو جعفر الطبري (٣١٠هـ)، تح: أحمد محمد شاكر الناشر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ.

٩. تلخيص كتاب أرسطو في المنطق، ابن رشد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر–القاهرة، ط٣، ١٩٨١م.

١٠. الثقافة في طبعاتها المختلفة، تيري اغلتون، تر: ثائر ذيب، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة السورية، ع٤٦٠، ٢٠٠١م.

١١. الثقافة والحضارة، سلامة موسى، مجلة الهلال، كانون الأول/ ١٩٢٦م.

١٢. ثنائية اللغة والفكر قبالة المعاجز الحسية دراسة في السياقات الثقافية، فراس صلاح عبدالله، مجلة الأستاذ، جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد، مجلد ٥٩، ع٤، كانون الأول، ٢٠٢٠م: ٧٧.

١٣. حديث الأربعاء، طه حسين، دار المعارف–مصر، ط٩ (د.ت).

١٤. حرب اللغات و السياسات اللّغوية ، لويس جان كالفي، ترجمة حسن حمزة، المنظمة العالمية للترجمة، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.

١٥. الحيوان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢، ١٤٢٤ هـ .
١٦. دستور جمهورية العراق لعام ٢٠٠٥ النافذ، موقع مجلس النواب العراقيّ، الدائرة الإعلامية.
١٧. ديوان علي بن الجهم، تح: خليل مردم بك، دار الآفاق الجديدة، بيروت–لبنان، ط٢، ١٩٨٠م.
١٨. رؤية العالم عند عبد الرحمن بن خلدون، حسن ملكاوي، مجلة الكلمة، لبنان، م١٣، ع٥٣، ٢٠٠٦م.
١٩. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت.
٢٠. عبر منظار اللغة، غاي دويتشر، تر: حنان عبد المحسن، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠١٥م.
٢١. العربية أم الألمانية، عبد الحق فاضل، دار نيسابدن–ألمانيا، ١٩٨٨م.
٢٢. علم المصطلح أسسه النظرية والتطبيقية، علي القاسميّ، مكتبة لبنان ناشرون– لبنان–،ط١، ٢٠٠٨م.
٢٣. الفلسفة العقلانية عند ابن رشد، محمد عبابسة، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم–الجزائر، ع١١، ٢٠١١م.
٢٤. الفلسفة الماديّة وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر المعاصر، بيروت–لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م.
٢٥. اللسانيات النشأة والتطور، أحمد مؤمن، ديوان المطبوعات الجزائرية– الجزائر، ط٢، ٢٠٠٥م.
٢٦. اللغة بين الفرد والمجتمع، أوتويسبرسن، تر: عبد الرحمن أيوب محمد، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، ط١، ١٩٥٤م.
٢٧. اللغة والأمة والقصد، رسالة دكتوراه، مصطفى بلبولة، إشراف: الحسين الزاوي، جامعة وهرا–الجزائر، ٢٠١٣م.
٢٨. اللغة والثقافة والإدراك تأصيل العلاقة مع الإشارة إلى بعض تجلياتها وثمراتها، بهاء الدين مزيد، مجلة أبوليوس، كلية الآداب واللغات –جامعة محمد الشريف مساعدية، الجزائر، م٨، ع١، ٢٠١٢م.
٢٩. اللغة والثقافة، كلير كرامش، تر: أحمد الشيمي، منشورات وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر،ط١، ٢٠١٠م.
٣٠. اللغة والفكر : دراسة تاريخية تطورية لنشوء اللغة والفكر مع بيان العلاقة بينهما في ضوء فسلجة المخ والدراسات السيكولوجية الحديثة، نوري جعفر، مكتبة التومي– الرباط الرباط، ط١، ١٩٧١م.
٣١. اللغة والهوية في الوطن العربي إشكالية التعليم والترجمة والمصطلح، مجموعة مؤلفين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠١٣م.
٣٢. المعجم العربي الموحد لألفاظ الحضارة، عبد الكريم خليفة، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة–مصر، ع٨٧، القسم الأول، ٢٠٠٠م.
٣٣. الهوية الثقافية إشكالية جدلية الثقافة والمثاقفة عبد الرزاق الدواي، مجلة المناهل، ع ٧١، ٢٠٠٤م.
٣٤. الهوية العربية والأمن العربي، عبد السلام المسدي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.

Language, Culture and Thought are the Trinity of the Communicative Process

Ali Muhammad Ali
ali.mohammed1103b@ircoedu.uobaghdad.edu.iq
Prof. Dr. Zuhair Muhammad Ali
Baghdad University/ Ibn Rushd College of Education for Humanities/ Arabic Language Department

Abstract:

Culture ranges between the world of things and the world of ideas, or what is termed in Marxist thought, material culture and adaptive culture. What is meant by the first is the culture of using things as tools in daily life, while the second is meant by customs, traditions, ideas, trends, and language. This means that the adaptive culture is clearly affected by the society in which the individual lives, and forms the identity of the individual. This means that the actions of the individual and his dealings with things differ according to his relationship to the society in which he lives, in addition to the influence that differs in different languages. In addition, thought has a significant impact on defining the linguistic meaning of phrases and words. Rather, it has the most significant impact on choosing certain phrases and formulating a discourse according to specific criteria and patterns.